

١٠

الفصل الأول

●● التخابط مع الأطفال

أسئلة الأطفال : المعانى الخفية

. إن التخاطب مع الأطفال فن فريد له قواعده ومعانيه الخاصة به . ونادراً ما يكون الأطفال سذجاً فى تفاهمهم . وغالباً ما يضعون كلامهم فى نظام شفرى ، يتطلب من يفك رموزه .

سأل أيمن (١٠ سنوات) أباه :

- كم عدد الأطفال المشردين فى الجيزة ؟

فرح الأب ، الكيمائى والعقلانى ، بأن ابنه يهتم بالمشاكل الاجتماعية ؛ وألقى عليه محاضرة طويلة فى الموضوع ، ثم بحث ونقّب عن الرقم ، ولكن أيمن لم يقتنع ، وظل يسأل أسئلة فى نفس الموضوع :

- كم عدد الأطفال المشردين فى القاهرة ؟

- فى مصر كلها ؟ فى إفريقيا ؟ فى العالم ؟

وأخيراً خطر فى بال الأب أن ابنه ليس مهتماً بالمشكلة الاجتماعية ، ولكن بمشكلة شخصية . ولم تكن الأسئلة مصدرها التعاطف مع الأطفال المشردين ، قدر الخوف من التشرد نفسه . إنه لم يكن يتطلع إلى العدد الذى يمثل الأطفال الذين تخلّى أهلهم عنهم ، لكنه كان يتطلع إلى الاطمئنان والتأكد بأنهم لن يتخلّوا عنه .

وأحمد (خمس سنوات) فى زيارته الأولى لروضة الأطفال فى صحبة أمه ، تطلع إلى الرسومات المعلقة على الحائط ، وسأل بصوت عال :

- من رسم هذه الصورة القبيحة ؟

وأحسّت أمه بالحرج فنظرت إليه في استهجان وقالت له :

- ليس من التهذيب أن تقول إنها صور قبيحة ، في حين أنها جميلة جداً .

وابتسمت المدرّسة ، التي فهمت معنى السؤال ، وقالت :

- هنا ليس من المفروض أن ترسم صوراً جميلة . يمكنك رسم صور هابطة ؛ إذا

أحسست أنك تحبها . وظهرت ابتسامة كبيرة على وجه أحمد ؛ لأنه حصل على إجابة عن سؤاله الخافى :

- ماذا يحدث لولد لا يرسم جيداً ؟

ثم التقط أحمد سيارة إطفاء مكسورة ، وسأل بكل اقتدار :

- من كسر هذه اللعبة ؟

فأجابت الأم :

- وما فائدة أن تعرف من كسرها ، وأنت لاتعرف أحداً هنا ؟

لم يكن أحمد مهتماً في الواقع باسم من كسرها ؛ إنما كان يريد أن يعرف ما يحدث للأولاد الذين يكسرون اللعب .

وأعطت المدرّسة التي فهمت ما وراء السؤال ، إجابة لائقة :

- اللعب هي للعب بها . وأحياناً تنكسر . وهذا يحدث في كل مكان .

وبذا على أحمد الرضا ، وقال في نفسه :

- إن هذه المدرّسة رائعة . إنها لاتغضب بسرعة ، حتى عندما يرسم الأطفال صورة

قبيحة أو يكسرون لعبة من اللعب . لا مدعاة إلى الخوف ، ومن الأمان أن أبقى هنا .

ولوّح أحمد لأمه مودعاً ، واتجه إلى المدرّسة ؛ ليبدأ يومه الأول في روضة الأطفال .

وكانت سندس (١٢ سنة) حزينة بأكية . فابنة خالتها المحببة لديها سوف تعود لأسرتها بعدما قضت معها معظم إجازة الصيف . وقالت والدموع في عينيها :

- دينا سترحل . سأبقى وحيدة ثانية .

الأم - ستجدين صديقة غيرها .

سندس - سأكون وحيدة .

الأم - ستتغلين على ذلك .

سندس - إيه ، يا ماما ! (نحيب)

الأم - أنت عمرك اثنتا عشرة سنة ، ومازلت تبكين كالطفلة الصغيرة !

فرمقت سندس أمها بنظرة نافذة ، ولأذت بالفرار إلى غرفتها ، وأغلقت الباب من خلفها !

إن هذا الحادث كان من الأفضل أن تكون له نهاية أكثر سعادة . يجب تناول شعور الطفل بشيء من الجدّية ، حتى ولو كان الموقف ليس خطيراً . إن فراق دينا في نظر الأم ، لا يستدعى هذه الدموع ، ولكن استجابتها لاداعي أن يعوزها التعاطف . فكان يجب على الأم أن تقول لنفسها :

- إن سندس متألمة حزينة . يمكنني مساعدتها إذا أظهرت فهمي لما يؤلمها .

وكان يجب أن تقول لابنتها بعض ما يلي أو كُله :

- بدون دينا ستحسين بالوحدة .

- ستوحشك وستحسين بغيابها .

- لا بد أن المنزل يبدو خاوياً بدون دينا .

- من الصعب الفراق بعدما تعودتما أن تكونا معاً .

وتخلق مثل هذه الاستجابات الألفة والمودة بين الأم وابنتها أو ابنها ، وعندما يشعر

الطفل بأن أمه تفهمه ، تزول وحدته وآلامه ؛ لأن أمه قد فهمته ، ويزداد حبه لأمه عمقاً ؛ لأنها تدرك مشاعره . وتخدم مودة الأم لطفلها وتكون بمثابة الضماد العاطفى للذات الجريح .

حوارات غير مثمرة :

يصاب الآباء بالإحباط عند التحوار مع الأبناء ؛ لأنه لا يؤدي إلى شيء ، كما يصوره الحوار المشهور :

- أين ذهبت ؟

- إلى الخارج .

- ماذا فعلت ؟

- لا شيء .

ويكتشف الآباء الذين يحاولون أن يكونوا حصيفين ، كم يصبح هذا مرهقاً . وكما قالت إحدى الأمهات :

- أحاول أن أتفاهم مع ابني حتى تظهر على وجهي علامات الغضب ، ولكنه لا ينصت لى . إنه يسمعى فقط عندما أصرخ .

وغالباً ما يقاوم الأبناء التحوار مع الآباء . إنهم يمقتون التوبيخ ، وتوجيه الكلام ، والانتقاد ، ويشعرون أن الآباء يلحون فى الكلام كثيراً . ويقول حسين (ثمانى سنوات) لأمه :

- عندما أسألك سؤالاً صغيراً ، لماذا تحيىينى بمثل هذه الإجابة المطولة ؟

ويفضى لأصدقائه قائلاً :

- إننى لا أخبر أمى بشيء ؛ لأننى إذا بدأت فى إخبارها بشيء ، فلن تترك لى وقتاً للعب .

وسوف يلاحظ أى مراقب مهتم يَنْصِتُ لمحادثة بين أحد الآباء ، وأحد الأبناء المدى الضئيل الذى ينصت فيه كل منهما للآخر . فتبدو المحادثة عبارة عن حديث فردى منفصل عن الآخر ، أحدهما يتكون من نقد وتوجيهات ، والآخر من دفاع ورفض وإنكار .

ولانكمن مأساة مثل هذا التفاهم فى نقص الحب ، بل فى نقص الاحترام ، ولافى نقص الذكاء ، إنما فى نقص الحذق والبراعة .

ولغتنا اليومية لاتفى ولاتكفى للتفاهم بشكل له معنى وهدف مع الأطفال . وللوصول إلى الأطفال والفوز بهم وللإقلال من خيبة أمل الآباء ، فنحن فى حاجة إلى صيغة جديدة للتفاهم مع الأطفال ، تتضمن طرقاً جديدة للمحادثة والحوار معهم .

القواعد الجديدة للتفاهم :

إن القواعد الجديدة للتفاهم مع الأطفال مبنية على الاحترام والبراعة . إنها تتطلب :

(أ) تلك التصريحات التى تحافظ على احترام الذات بالنسبة للأبناء والآباء .

(ب) تلك التعبيرات التفاهمية التى تسبق النصيح والإرشاد .

أشرف (تسع سنوات) يأتى للبيت غاضباً ساخطاً . كان المفروض أن يذهب فى رحلة مع المدرسة ، ولكنها ألغيت بسبب المطر . فقررت أمه أن تستخدم طريقة تفاهم جديدة . وأحجمت عن «الكليشيهات» أو الصيغ المبتذلة التى كانت فى الماضى تعقّد الأمور أكثر ، مثل :

- لا فائدة من البكاء على رحلة ألغيت بسبب المطر .

- أمامك رحلات أخرى كثيرة .

- أنا لم أتسبب فى المطر ، فلماذا أنت حانق على ؟

وقالت لنفسها :

- إن لابنى أحاسيس جيّاشة إزاء إلغاء الرحلة ، إنه حزين لما أصابه من خيبة أمل .

إنه يظهر لى غضبه لأشاركه فى خيبة أمله . إنه صادق مع عواطفه . أستطيع مساعدته بإظهار فهمى واحترامى لأحاسيسه . وقالت لأشرف :

الأم - تبدو حزيناً لما أصابك من خيبة أمل .

أشرف - نعم .

الأم - كنت شغوفاً للقيام بهذه الرحلة .

أشرف - طبعاً .

الأم - لقد أعددت كل شىء ، ثم جاء المطر اللعين .

أشرف - نعم ، هذا ما حدث بالضبط .

أعقب ذلك لحظة سكون ، قال أشرف بعدها :

- حقاً ، سوف تأتى أيام أفضل .

لقد زال غضبه ، وكان متعاوناً تماماً بقية اليوم . وعادة - عندما يعود أشرف للبيت غاضباً - تصاب الأسرة كلها بالنكد ، ويبدأ فى إغاضة واستفزاز كل شخص فى البيت . ولن يعود السلام والهدوء إلا عندما ينام فى الليل .

ما الشىء الخاص فى طريقة التفاهم هذه ، وما عناصر المساعدة ؟

عندما يكون الطفل فى خضمّ عواطفه الجياشة ، فإنه لا يستطيع أن ينصت لأحد . إنه لا يستطيع أن يقبل النصيح أو التعزية أو النقد البناء . إنه يريد منا أن نفهمه . إنه يريد منا أن نفهم مايعتمل فى داخله فى تلك اللحظة بالذات . علاوة على أنه يريدنا أن نفهمه ، بدون أن يكشف تماماً عما يعانيه . إنها لعبة يفشى فيها القليل فقط مما يحس به ، والباقى يحتاج منا إلى التخمين .

عندما يقول الطفل لنا :

- المدرّسة ضربتنى .

فلا داعى أن تسأله عن مزيد من التفاصيل . ولا داعى لأن تقول له :

- ماذا فعلت لتضربك ؟ لابد أنك فعلت شيئاً . ولاداعى حتى أن تقول :

- حقاً ، إننى آسف لهذا .

بل نظهر له أننا ندرك ألمه ونفهم ارتباطه وشعوره بالانتقام ، كيف نعرف ما يشعر به؟
ننظر إليه وننصت له ، ونقترب أيضاً من تجاربنا - نحن - العاطفية . إننا نعرف ما يشعر
به الطفل عندما يوضع فى وضع مخز فى مكان عام وفى حضور زملائه ؛ لذلك نستعمل
الكلمات التى يعرف الطفل منها أننا نفهم ما قد مر به . وأى من التعبيرات التالية
يمكن أن تفى بالغرض :

- لابد أنه موقف مربك .

- لابد أن ذلك أثار غضبك .

- لابد أنك كرهت المدرسة فى ذلك الموقف .

- لابد أن هذا ألم شعورك جداً .

- كان هذا يوماً سيئاً بالنسبة لك .

إن أحاسيس الطفل الجياشة لا تختفى عندما نقول له :

- إن الشعور بهذه الطريقة شئ غير ظريف . أو عندما يحاول الأب أن يقنعه أو الأم
أن تقنعه بأنه :

- لاداعى أن تشعر بهذه الطريقة :

فالأحاسيس الجياشة لا تختفى بإنكارها ، بل تضعف حدتها وتفقد شدتها وقسوتها
عندما يتقبلها المنصت بالمواساة والفهم .

إن هذه المقولة تبدو صادقة تماماً ليس مع الأطفال فقط ، بل مع الكبار أيضاً ، كما
هو واضح من النقاش التالى بين باحثة ومجموعة أمهات :

الباحثة : لنفرض أنه في صباح أحد الأيام التي يبدو فيها كل شيء جائراً مصاباً بالإخفاق . فيرن جرس التليفون ، ويكي طفلك الرضيع ، وقبلها تتحركين نحو أى منهما ، تفور القهوة ، أو يحترق الخبز في المحمصة ، ويتطلع زوجك إلى المحمصة ويقول :

- ياربى ! متى ستعلمين تحميمص الخبز ؟!

فما هو رد فعلك ؟

السيدة أ : سألقى بالمحمصة في وجهه !

السيدة ب : سأقول له « حمّص خبزك بنفسك ! » .

السيدة جـ : سأتألم جداً ، وربما أبكى .

الباحثة : ما الذى تشعرين به نحو زوجك بسبب كلماته هذه ؟

السيدة أ : الغضب ، الكره ، الغيظ .

الباحثة : هل من السهل عليك أن تقومى بتحميمص خبز آخر ؟

السيدة أ : فقط إذا استطعت وضع بعض السم فيه !

الباحثة : وعندما يغادر لعمله ، هل من السهل القيام بأعمال المنزل ؟

السيدة أ : لا ، لقد انهار اليوم كله .

الباحثة : لنفرض في نفس الوقت ، تطلّع زوجك وقال : مسكينة يا حبيبتي ، إنه صباح شاق بالنسبة لك . . الولد ، والتليفون ، وها هي المحمصة أيضاً !

السيدة أ : كان يغمى علىّ لو قال زوجى ذلك لى !

السيدة ب : كنت أشعر بإحساس رائع !

السيدة جـ : كنت أشعر بإحساس طيب ، وكنت حضنته وقبلته .

الباحثة : لماذا ؟ . . فالطفل مازال يبكى ، والخبز لا يزال محترقاً ؟

السيدات : هذا لايهم .

الباحثة : وما الفارق ؟

السيدة ب : إنك تشعرين بنوع من الامتنان ؛ لأنه لم ينتقدك . . إنه كان معك ، وليس ضدك .

الباحثة : وعندما يغادر زوجك لعمله ، هل من الصعب عليك القيام بأعمال المنزل ؟

السيدة جـ : لا ! بل سأقوم بذلك وأنا أغنى .

الباحثة : ما رأيكن في نوع ثالث من الأزواج . يتطّلع إلى الخبز المحترق ويقول لك في هدوء : دعيني أريك ، يا حبيبتى ، كيف تحمّصين الخبز :

السيدة أ : أوه ، لا . إنه أسوأ من الزوج الأول ! إنه يشعر بأنك غبية !

الباحثة : دعونا نرى كيف تنطبق هذه الطرق الثلاث المختلفة لحادث المحمص على معاملتنا لأطفالنا .

السيدة أ : أفهم ما ترمين إليه . إننى دائماً أقول لابنى : «إنك كبير وتعرف هذا ، إنك كبير وتعرف ذاك » . لا بد أن ذلك يثير غضبه .

السيدة ب : أنا دائماً أقول لابنى : «دعنى أبيت لك ، يا حبيبى ، كيف تفعل هذا أو ذاك .

السيدة جـ : لقد تعودت على الانتقاد ، حتى إنه أصبح أمراً طبيعياً عندى . إننى أستخدم نفس الكلمات التى كانت تستخدمها أمى ضدى بالضبط ، عندما كنت طفلة . وكرهتها بسببها . فلم أفعل أى شىء صحيح على الإطلاق ، وكانت دائماً تجعلنى أعيد فعل كل شىء مرة أخرى .

الباحثة : وأنت الآن تجدين نفسك تستخدمين نفس الكلمات مع ابنتك ؟

السيدة جـ : نعم . ولا أحب ذلك على الإطلاق . . ولا أحب نفسى عندما أفعل ذلك .

الباحثة : إنك تتطلعين إلى طرق أفضل للحديث مع أطفالك .

السيدة جـ : أجل ، بالتأكيد !

الباحثة : دعينا نرى ما نستطيع تعلّمه من قصة الخبز المحترق :

ما الذى ساعد فى تغيير الأحاسيس الوضيعة إلى أحاسيس محبة ؟

السيدة ب : حقيقة أن شخصاً ما يفهمك .

السيدة جـ : وبدون أن يلومك .

السيدة أ : وبدون أن يقول لك : كيف تتحسنين ؟

يصوّر لنا هذا المثال بإيجاز قوة الكلمات وقدرتها فى توليد العداء أو السعادة . ومغزى

القصة أن استجاباتنا (كلمات وأحاسيس) يمكن أن تحدث اختلافاً واضحاً فى جو بيتنا العام .

بعض مبادئ التخاطب :

من الحدث إلى العلاقة .

- عندما يروى طفل أى حدث أو يُسأل عنه ، فمن الأفضل دائماً عدم الاستجابة للحدث ، بل للعلاقة الضمنية .

فريدة (ست سنوات) اشتكت أنها «مؤخراً» أصبحت تحصل على هدايا أقل من أخيها . ولم تنكر الأم الشكوى ولم تشرح أن أخاها أكبر ويستحق المزيد . ولم تعد بتصحيح الخطأ . وكانت تعرف أن الأطفال يهتمون أكثر بعمق علاقاتهم مع الأمهات عن حجم الهدايا وأعدادها . فقالت الأم :

- هل تتسائلين إن كنت أحبك قدر ما أحبه ؟

وبدون أن تضيف جملة أخرى ، احتضنت الأم ابتها ، التى استجابت بابتسامة

تعجب وسرور - وكانت هذه نهاية محاورة كان من الممكن أن تصبح جدالاً لانهاية له .

من الحدث إلى الأحاسيس :

عندما يروى طفل حدثاً ما ، فمن المفيد أحياناً عدم الاستجابة للحدث نفسه ، بل للأحاسيس المحيطة به .

مروة (سبع سنوات) ، عادت للبيت متكدرة ، وأخبرت أمها بأن الأولاد دفعوا بصديققتها رشا من فوق الرصيف إلى حفرة مليئة بالمياه ، وبدلاً من أن تسألها عن تفاصيل الحادث ، استجابت الأم لأحاسيس ابنتها ، وقالت :

- لا بد أنك انزعجت وتكدرت !

- لقد حنقت على الأولاد الذين فعلوا ذلك .

- إنك مازلت غاضبة منهم .

وأجابت مروة لكل هذه الأقوال بكلمة «نعم!» التأكيدية . وعندما قالت الأم :

- هل تخافين أن يفعلوا هذا بك أيضاً ؟

أجابت مروة في تصميم :

- دعيهم يحاولون ، وسأسحبهم معي . وسيبتلون بالماء والطين .

وبدأت تضحك على الصورة التي في ذهنها عن ذلك الموقف . وكانت هذه النهاية السعيدة لمحادثة كان من الممكن أن تصبح موعظة مملّة لنصيحة عديمة النفع عن طرق الدفاع عن النفس .

وعندما يأتى طفل للبيت مع حشد من الشكوى عن صديق أو مدرّس أو عن حياته ، فمن الأفضل الاستجابة لمستوى إحساسه ، بدلاً من محاولة تأكيد الحقائق أو تأكيد صحة الأحداث .

جاء تامر (عشر سنوات) للبيت ثائراً هائجاً .

تامر : يا لها من حياة بائسة ! لقد وصّمتنى المدرّسة بالكذب ، وقالت : إنى

كاذب ؛ لأنني قلت لها : إنني نسيت الواجب المنزلي . وصرخت بأعلى صوتها قائلة :
إنها ستكتب لك عن ذلك .

الأم : لقد قضيت يوماً عصياً .

تامر : هذا ما حصل .

الأم : لا بد أنه شيء يعقّد أن تقول عنك إنك كاذب أمام الفصل كله .

تامر : بالتأكيد .

الأم : أراهن أنك تمنيّت لها في داخلك عدة أمور !

تامر : أوه ، نعم ! ولكن كيف عرفت ؟

الأم : هذا ما نفعله دائماً عندما يؤذينا أحد .

تامر : هذا إحساس بالارتياح .

من العام إلى الخاص :

عندما يقول الطفل شيئاً عن نفسه ، فليس من المرغوب فيه غالباً الاستجابة بالموافقة
أو عدم الموافقة ، ولكن بتفاصيل تحمل للطفل فهماً أبعد مما يتوقع .

فعندما يقول الطفل :

- إنني لست صالحاً في الرياضيات .

فلن يفيد كثيراً أن تقول له :

- نعم ، أنت خيبة مع الأرقام .

وليس مفيداً أن نُقنّد رأيه أو أن نقدم له نصيحة رخيصة :

- إذا ذاكرت أكثر ، ستكون أفضل .

ومثل هذه المساعدة المتعجلة تؤذى فقط احترامه الذاتى والدرس اللحظى هو الإقلال من ثقته فقط لا غير .

إن قوله :

- إننى لست صالحاً فى الرياضيات .

يمكن أن يقابل بالجدية والفهم . وأى مما يلى قد يؤدى الغرض .

- الرياضيات ليست موضوعاً سهلاً .

- بعض المسائل صعب حلها .

- إن المدرس يصعب الموضوع بنقده .

- إنه يجعلك تشعر أنك غبى .

- أراهن أنك لاتقدر على الانتظار لانتهاء الحصة .

- عندما تنتهى ، تشعر بأمان أكثر .

- لابد أن وقت الامتحان أكثر عسراً .

- لابد أنك قلق جداً إزاء الفشل .

- . . . قلق إزاء ما سوف نفكر فيه عنك .

- . . . تخشى أن يخيب ظننا فيك .

- نحن نعلم أن بعض الموضوعات ليست سهلة .

- نحن نشق فى أنك ستفعل ما فى وسعك .

ويروى طفل (١٢ سنة) أنه يكاد « يغمى عليه » عندما يتحدث معه والده بمثل هذا الفهم بعدما أحضر معه للبيت التقرير الشهرى الراسب فيه . وكان ردُّ فعله الداخلى :

- لابد أن أرتفع لمستوى ثقة أبى فىّ .

وفى بعض الأحوال النادرة ، يكاد كل أب يسمع ابنه يعلن أو ابنته تعلن :
- أنا غيبى . . . أنا غيبية .

وهو يعلم أن طفله لا يمكن أن يكون غيبياً ، لذلك ينبرى لإقناعه بأنه ذكى .
الابن : أنا غيبى .

الأب : أنت لست غيبياً .

الابن : بل غيبى .

الأب : لست غيبياً . تذكر كم كنت ذكياً فى المعسكر ؟ المشرف عرف أنك من
اللمّاحين النجباء .

الابن : كيف عرفت ؟

الأب : لقد قال لى ذلك .

الابن : يا إلهى ، وكيف كان يقول لى إنك غيبى طول الوقت ؟

الأب : كان يمزح معك ، ليس إلّا .

الابن : أنا غيبى ، وأعرف ذلك . انظر لى درجاتى فى المدرسة .

الأب : ما عليك إلّا أن تبذل جهداً أكبر .

الابن : لقد بذلت جهداً أكبر من قبل دون جدوى ، ليس لدى مخ .

الأب : أنت ذكى ، وأنا أعرف .

الابن : أنا غيبى ، وأنا أعرف .

الأب (بصوت عالٍ) : أنت لست غيبياً .

الابن : بل أنا !

الأب : أنت لست غيبياً ، يا غيبى !

عندما يعلن طفل أنه غبى أو قبيح أو سيء ، فلا شيء مما يمكننا قوله أو فعله سيغيّر من صورته الذاتية في الحال فرأى الشخص المتأصل عن نفسه يقاوم المحاولات المباشرة عند التغيير . وكما قال أحد الأطفال لأبيه :

- أنا أعرف حسن مقصدك ، يا أبى ، ولكنى لست ذاك الغبى لأصدق كلامك بأنى ذكى .

فعندما يكون طفل رأياً سلبياً عن نفسه ، فإنكارنا واحتجاجاتنا لا تثمر كثيراً عنده ، بل تولّد تصرّحاً أقوى بإيماؤه الراسخ . وأفضل مساعدة نستطيع أن نقدمها هى أن نظهر له أننا لانفهم فقط شعوره العام ، بل وتضميناته :

الابن : أنا غبى .

الأب (جديّاً) : أنت تشعر بالفعل هكذا ، أليس كذلك ؟ إنك لا تعتقد فى نفسك أنك ذكى .

الابن : لا .

الأب : إذن فأنت تعاني داخليّاً بشكل كبير ؟

الابن : نعم .

الأب : وفى المدرسة ، لابد أنك تخاف كثيراً من الوقت .

... وتخاف أن تفشل .

... وتخاف أن تحصل على درجات متدنّية .

وعندما ينادى المدرس عليك ، ترتبك .

حتى عندما تعرف الإجابة ، لاتخرجها بشكل صحيح .

وتخاف أن تبدو كلماتك سخيفة مضحكة .

... وأن المدرّس سينتقدك .

... وأن الأطفال سيسخرون منك ويضحكون .

وكذلك ، تُفضّل في أوقات كثيرة ألا تقول شيئاً .

أظن أنك تذكر أوقاتاً عندما قلت شيئاً ما وضحكوا منك .

وجعلك هذا تشعر أنك غيبى أمام نفسك ، وجرحت وغضبت أيضاً . (هنا قد يخبرك الطفل ببعض من تجاربه) .

ولكن لديك رأى مختلف عن نفسك .

قد لا تغير هذه المحادثة صورة الطفل عن نفسه في الحال ، ولكنها قد تزرع فيه بذرة الشك إزاء عدم فاعليته . وقد يفكر في نفسه :

- إذا كان أبى يفهمنى ويعتبرنى شخصاً ممتازاً ، فربما أنا لست هذا التافه عديم الجدوى .

وقد تقود المودة ، التى تخلقها مثل هذه المحادثة ، الابن ليحاول أن يصل إلى إيمان أبيه به .

وعندما يقول طفل :

- أنا لم ألق حظاً سعيداً مطلقاً .

فلن يغير إيمانه أى جدل أو تفسير ؛ لأن كل حالة حظ سعيد نذكرها له ، سيأتى لنا بحكايتين من سوء الحظ . وكل ما نستطيع عمله ، هو أن نظهر له كيف نفهم بشكل صميم الشعور الذى قاده لاعتقاده :

الإبن : أنا لم ألق حظاً سعيداً مطلقاً .

الأم : إنك تشعر بالفعل هكذا ؟

الإبن : نعم .

الأم : ولذلك عندما تلعب مباراة مثلاً تفكر داخل نفسك : «إننى لن أكسب . فليس عندى حظ» .

الإبن : نعم ، هذا بالضبط ما أفكر فيه .

الأم : وفي المدرسة ، إذا عرفت الإجابة تفكر : « اليوم لن يوجه المدرس لي السؤال » .

الإبن : نعم .

الأم : ولكن إذا لم تعمل الواجب المنزلي ، تفكر : « اليوم سوف ينادى علي » .

الإبن : نعم .

الأم : أظن تستطيع أن تعطيني كثيراً من الأمثلة .

الإبن : بالتأكيد . . مثل (يعطى الطفل أمثلة) .

الأم : أنا مهتمة بما تفكر فيه بخصوص الحظ . . إذا حدث أمر ما تفكر أنه حظ سيء ، أو حتى حظ سعيد ، تعال واحك لي ، وستحدث عنه .

إن هذه المحادثة ، قد لا تغير إيمان الطفل بسوء حظّه . ومع ذلك ، قد تحمل له كم هو محظوظ ليكون له مثل هذه الأم المتفاهمة .

صوت تكافؤ الضدين :

الأطفال يحبوننا ويستاءون منا في نفس الوقت . إنهم يشعرون بالاتجاهين نحو الآباء ، والمدرسين ، وجميع الأشخاص الذين لديهم سلطة ونفوذ عليهم . ويجد الآباء صعوبة في قبول تكافؤ الضدين كحقيقة من حقائق الحياة . إنهم لا يحبونها في أنفسهم ، ولا يستطيعون أن يتسائخوا فيها في أطفالهم . ويعتقدون أن هناك أمراً ما خطأ بشكل متأصل في الشعور باتجاهين نحو الناس ، خصوصاً نحو أفراد الأسرة .

ويمكننا تعلّم أن نقبل وجود مشاعر تكافؤ الضدين في أنفسنا وفي أطفالنا . ولتجنّب خلافات غير ضرورية ، يحتاج الأطفال أن يعرفوا أن مثل هذه الأحاسيس سليمة وطبيعية . ويمكننا أن نجنب الطفل كثيراً من الذنب والقلق عن طريق الاعتراف بمشاعر تكافؤ الضدين ، والتعبير عنها :

- يبدو أنك تشعر باتجاهين نحو مدرّسك : إنك تحبه وتكرهه .

- يبدو أنك تشعر باتجاهين نحو أخيك الأكبر : إنك تعجب به ، ولكنك تستاء منه أيضاً .

- لديك فكرتان إزاء الموضوع ؛ تود أن تذهب إلى المعسكر ، ولكنك تريد أيضاً أن تبقى في البيت .

إن الحديث الهادئ غير الانتقادي عن تكافؤ الضدين الذي يحس به الأطفال سيساعدهم ؛ لأنه سيبلغهم أنه حتى مشاعرهم «المختلطة» ليست بعيدة عن الفهم والإدراك .

وكما قال أحد الأطفال :

- إذا أمكن فهم أحاسيس المختلطة ، فهي ليست مختلطة لهذه الدرجة .

وعلى العكس نجد التعبيرات التالية أو ما يشابهها ليست مفيدة على الإطلاق :

- يا ولد ، إنك مشوش ! مرة تحب صديقك ، ثم تغتاظ منه وتشكر مرة أخرى .
حدّد رأيك ، إن كان لك رأى .

وهناك رأى حصيف عن الحقيقة البشرية يضع في اعتباره إمكانية وجود بعض الكراهية أيضاً ، حيث يوجد الحب ؛ وبعض الحسد أيضاً ، حيث يوجد الإعجاب ؛ وبعض العداء كذلك ؛ حيث يوجد الإخلاص ؛ وبعض الخوف من شر مرتقب ، حيث يوجد النجاح .

إن الإنسان في حاجة إلى حكمة عظيمة لإدراك أن جميع الأحاسيس شرعية ومنطقية :
الإيجابية ، والسلبية ، ومتكافئة الضدية

وليس من السهل قبول مثل هذه المفاهيم أو الأفكار داخلياً . فتوجيهات طفولتنا وتربية صباونا تميل بنا إلى رأى معاكس . لقد تعلمنا أن الأحاسيس السلبية «سيئة» ، ويجب ألا نشعر بها أو يجب أن نخجل منها . والاتجاه الحديث والعلمي يصّرح بأن

الأفعال الواقعية يمكن الحكم عليها بأنها «سيئة» أو «جيدة» ، أما الأفعال الخيالية فلا . والسلوك أو التصرف فقط هو الذى يمكن أن يُدَمَّ أو يُمدح ، أما الأحاسيس فيجب ألا تَدَمَّ أو تمدح . والحكم على الأحاسيس واستهجان الخيال قد يتسبب فى العنف والقسوة على كل من الحرية السياسية والصحة العقلية .

والعواطف جزء من جيناتنا الوراثية . فالسمك يسبح ، والطيور تطير ، والناس تشعر وتحس . ونحن أحياناً سعداء ، وأحياناً لا ؛ ولكن أحياناً فى حياتنا ما نتأكد من أننا نحس بالغضب والخوف ، والحزن والفرح ، والطمع والذنب ، والشهوة والازدراء ، والبهجة والاشمئزاز . وبينما لانكون أحراراً فى اختيار العواطف التى تنشأ فىنا ، نكون أحراراً فى اختيار كيفية التعبير عنها ، ومتى ، بشرط أن نعرف ماهى . وتلك هى أس المشكلة . فكثير من الناس قد تربوا دون أن يعرفوا ماهى أحاسيسهم . فعندما كانوا يكرهون ، كان يقال لهم هذا مجرد نفور . وعندما كانوا يخافون ، كان يقال لهم ليس هناك شىء لتخافوا منه . وعندما كانوا يشعرون بالألم ، كانوا يُنصحون بأن يكونوا شجعاناً ويتسمون . ومعظم أغانينا المشهورة تقول لنا :

« تظاهر بأنك سعيد عندما لانكون كذلك » .

وماهو المقترح بدلاً من التظاهر والادعاء ؟

فالتربية العاطفية يمكنها أن تساعد الأطفال فى معرفة ما يحسون به . ومن المهم للطفل أن يعرف ما يحس به أكثر من : لماذا يحس به . وعندما يعرف بوضوح ماهى أحاسيسه ، فلن يتعرض للإحساس «بالتشويش» داخلياً .

مرآة الشخصية :

كيف نستطيع مساعدة الطفل فى معرفة أحاسيسه ؟

يمكننا عمل ذلك بوضع أنفسنا كمرآة لعواطفه . فالطفل يتعلم عن تكوينه المادى بالنظر لصورته فى المرآة . ويتعلم عن تكوينه العاطفى بساع أحاسيسه التى نعكسها له .

ووظيفة المرأة هي انعكاس الصورة كما هي ، دون إضافة تزويق أو مثالب .

نحن لا نريد مرآة تقول لنا :

- إن شكلك رهيب وعينيك متورمتان ووجهك منتفخ . (كلك على بعضك)
كارثة . ويستحسن أن تفعل شيئاً في شكلك . . ما أقبح شكلك !

ومثل هذه المرأة السحرية سوف نتجنب الوقوف أمامها كما نتجنب مرض الإيدز .
نحن نريد من المرأة صورة ، وليس موعظة أو تقريراً . قد لانعجب بالصورة التي
نراها ، ومع ذلك ، قد نقرر لأنفسنا حركة التجميل التالية .

إن وظيفة المرأة العاطفية هي عكس المشاعر كما هي ، بدون تشويه :

- تبدو وكأنك غاضب جداً .

- تظهر وكأنك تكرهه جداً .

- يتضح أنك مشمئز من الوضع كله .

إن هذه العبارات ، لطفل لديه مثل هذه المشاعر ، مفيدة جداً . فهي تُظهر له
بوضوح ما هي مشاعره . إن وضوح الصورة ، سواء في مرآة عادية أو في مرآة عاطفية ،
تتيح الفرصة للمبادرة الذاتية للتجميل والتغيير .